

محمّد إسعاف بن عثمان بن سليمان النَّشاشيبي
لقبٌ بأديب العربيّة، وكُتِبَ بأبي الفضل لولعه بمقامات البديع

بدر محمد سعيد الحوت*

تقديم:

بدأ محمد إسعاف النشاشيبي شاعراً، وأديباً، مُنْشِئاً، وناقداً، وراويّاً، وانتهى فقيهاً مجتهداً قوياً الحجّة ناصع البيان، صاحب قضية، ابن بيت المقدس، إنّه العلامة الفدّ محمّد إسعاف النَّشاشيبي، ومن خلال هذه الدِّراسة وجمع المعلومات من المصادر المتوقّرة، يشهد له فقهاء وعلماء وأدباء وشعراء عصره بأنه علّم من أعلام الأدب العربي، وهذا ما تشير إليه جميع المصادر والدِّراسات. لقب بأديب اللُّغة العربيّة، وكُتِبَ بأبي الفضل لولعه بمقامات بديع الزّمان الهمداني، يشير عالمنا إلى أنّ القرآن واللُّغة العربيّة جسد واحد لا يمكن التّفريق بينهما، ويعوّل كثيراً على ذلك من خلال شخصيّته وكتاباتهِ ومنهج حياته.

محمّد إسعاف بن عثمان بن سليمان النَّشاشيبي

لقبٌ بأديب العربيّة. وكُتِبَ بأبي الفضل لولعه بمقامات البديع⁽¹⁾:

هو أحد علماء القدس الشّريف، ندر حياته للدّود عن اللُّغة العربيّة الّتي تمثّل جزءاً أساسياً من الشّخصيّة الإسلاميّة. عاش مجاهداً بلسانه وقلمه، علماً للأدب، واحداً من رجالات عصره الّذين أمدهم الله بموهبة فدّة بلّغتهم كمال القول وجمال التّعبير، وبقدر ما كان ذلك العَلْمُ ضئيل الجسم نحيله، كان يأخذ بزمام الأمور في المجالس إذا

* باحث - أم الفحم.

¹. ديوان العرب: مجلّة فكريّة ثقافيّة اجتماعيّة، 2009.

تحدّث، ويوجّه دقّة الحديث إذا أطلق لسانه مُتناوِلاً قضيةً من القضايا، في حضور كرام العلماء والأدباء والشُعراء، ورجال السياسة والسُّفراء.

اشتهر النّشاشيبي بكنيتين ولقبين، فلقبَ بأبي الفضل، وهي كنية بديع الزّمان الهمداني، وإنّما تكنّى بها إسعاف لتعلُّقه به ونسجِه على منواله في مقاماته، وثانياً بأبي عبيدة، ولعلّها اقتداءً بأبي عبيدة معمر بن المثنّى⁽¹⁾ اللُّغويّ الإخباريّ المشهور، وإسعاف أديب العربيّة وخطيب فلسطين، لأنّه أخذ على نفسه عهداً بالدِّفاع عن العربيّة بأسلوب حماسيّ يعتمد الخطبة⁽²⁾.

إنّه العالمُ الَّذي شهد له علماء زمانه وشعرائه، بالفصاحة، وسلاسة لغته الّتي تفتنّ في تسييرها كيفما شاء، وقلمه السّيال كالبحر لا ينضب، بحرٌ للغة مليء باللّآلئ والمرجان والياقوت، إنّه محمّد إسعاف بن عثمان بن سليمان النّشاشيبي، وُلد في عام (1300- 1367هـ/ 1882- 1948م)⁽³⁾ بالقدس لأبٍ من كبار أثرياء الشّام، عاش ريببَ نعمة، في سعة من العيش وبسطة في الرّزق، وقد ورثَ عن أبيه ثروة

¹. معمر بن المثنّى النّسبي البصري. النّحوي اللُّغوي، مولى بني تميم، تيم قريش. ولد أبو عبيدة في البصرة، وكان إباحياً وأخذ عن يونس وأبي عمرو، وهو أوّل من صنّف في غريب الحديث. وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيّام، وكان أبو نواس يتعلّم منه ويصفه، ويذمُّ الأصمعي، سئل عن الأصمعي، فقال: لبلبل في قفص، وعن أبي عبيدة فقال: أديم طوي على علم. كان من أجمع النّاس للعلم وأعلمهم بأيّام العرب وأخبارها، وأكثر النّاس رواية، قيل: كان أبو عبيدة عالماً بالشّعر والغريب والأخبار والنّسب. أخذ عنه أبو عبيد، وأبو حاتم والمازني، والأثرم وعمر بن شبّة. وله نحو مائتين من المصنّفات منها: مجاز القرآن؛ إعراب القرآن؛ الأمثال؛ في غريب الحديث؛ ما تلحن فيه العامّة؛ نقاض جرير والفرزدق؛ أيّام العرب؛ الخيل، وغيرها. (الموسوعة العربيّة العالمية (http://www.mawsoah.net).

². http://ar.wikipedia.org/wiki

³. الموسوعة العربيّة، المجلّد 20، ص 671.

عظيمة⁽¹⁾. "قيل إنّ جدّه الأكبر قدِم إلى بيت المقدس في عهد الملك الظّاهر بيبرس، ونسبت الأسرة إلى صناعة النّشاب الّتي كانت تمتّنها"⁽²⁾. وُلِد وعاش في القدس، ونشأ بها، وأتمّ دروسه في المكاتب (الكتاتيب في مدينة القدس)، وتعلّم في المدرسة البطريركيّة ببيروت، على يد الشّيخ عبد الله البستاني، والشّيخ محيي الدّين الخيّاط، والشّيخ مصطفى الغلايبي⁽³⁾.

ألّم بالفرنسيّة إمامًا حسنًا⁽⁴⁾، ثمّ عاد إلى القدس في نحو العشرين من عمره، وقد أراد والده أن يكون عونًا له على إدارة أملاكه الواسعة وأمواله الطّائلة، فكان كذلك على مضض، وبدأ حينها الكتابة نظرًا ونثرًا في عدد من صحف القدس ومصر وسوريّة، وتولّى رئاسة مجلّة (الأصمعي) في بيت المقدس مدّة وجيزة، وكتب في مجلّة (النّفائس) و(المنهل). كتب كثيرًا في الصّحف والمجلّات، ونظّم الشّعْر ثمّ تركه، نشر سنة 1912 كتابه (أمثال أبي تمام)، وقُبيل نهاية الحرب العالميّة الأولى -والّتي سمّيت بالحرب الكبرى- انضمّ إلى أساتذة الكليّة الصّلاحيّة الّتي أنشأها جمال باشا في بيت المقدس، وألقى أولى محاضراته فيها بعنوان (كلمة في سير العلم وسيرتنا معه).

¹ . <http://www.alquds-online.org/index.php?s=15&ss=14&id=11>

² . محمد إسعاف النّشاشيبي، Wikipedia.

³ . هو الشّيخ مصطفى بن محمّد بن سليم بن محيي الدّين بن مصطفى الغلايبي، لازم حلقات العلم في الجامع العمريّ الكبير ببيروت، تلقّى علومه الأولى على الشّيخ محيي الدّين الخيّاط، الّذي قرأ عليه العربيّة والجغرافيا والتّاريخ، والشّيخ عبد الباسط الفاخوري والّذي قرأ عليه الفقه الإسلاميّ وعلم الكلام وأصول التّوحيد، والشّيخ صالح الرّافعي الطّرابلسي والّذي قرأ عليه مادّة الأدب العربيّ والشّعْر وفنّ المقامة. انتقل إلى مصر والتحق بالأزهر الشّريف.

⁴ . الحسيني، خليل محمّد، ص 89-91.

بعد الحرب أضحى مفضِّلاً للغة العربيَّة في إدارة المعارف سنة 1929⁽¹⁾، ومن آثاره في هذه المرحلة: (مجموعة النشاشيبي) و(البستان) و(قلب عربيّ وعقلٌ أوروبيّ)، وهذه محاضرة يلقيها أديبنا في جامعة بيروت الأمريكيَّة سنة 1924، و(كلمة في اللُّغة العربيَّة) جَهَرَ بها في جمعيَّة الرابطة الشَّرقيَّة في القاهرة⁽²⁾، في العام ذاته، ورسالة تحت عنوان (العربيَّة وشاعرها الأكبر أحمد شوقي)، وهي خطبة في مهرجان شوقي، و(العربيَّة والأستاذ الرِّحاني).

ترك الأديب والشاعر النشاشيبي إدارة المعارف، حيث صَبَّ جُلَّ اهتمامه على الكتابة والقراءة والرحلات، فأصدر خطباً اقتضتها مناسبات في رسائل قصيرة مثل: (مقام إبراهيم) و(بيروت والغلاييني) و(البطل الخالد صلاح الدِّين)، ومقالات متنوِّعة بأسماء مستعارة أحياناً، ومن ذلك (سلسلة في الرَّدِّ على المبشِّرين) خصَّ بها مجلَّة الرِّسالة الغرَّاء، وفي أثناء ذلك صدر له كتاب (الإسلام الصَّحيح)، وترك آثاراً مخطوطة حمل منها في رحلته الأخيرة إلى القاهرة ثلاثة لطبعها، وهي (نقل الأديب) و(أمالي النشاشيبي) و(التفاؤل عند أبي العلاء)، ومن آثاره كتب: (الأُمَّة العربيَّة)، و(حماسة النشاشيبي) و(جنَّة عدن)، ذكر الزركلي أنَّها كانت في بيته بالقدس قبل استيلاء اليهود عليها.

¹. الموسوعة العربيَّة، المجلد 20، ص 671.

². هذه الجمعيَّة مثَّلت مؤسَّسة فكريَّة ركيزة، إذ تأسَّست بهدف توثيق الرِّوابط بين الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، وذلك على يد نخبة من كبار العلماء، الذين أثروا المكتبة العربيَّة بمؤلِّفات مهمَّة في مجالات الدِّين والعلم والفكر.

انتخب عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي العربي⁽¹⁾، بتاريخ: 1923/11/8، وكان نظمه للشّعر قبل الحرب الكبرى، (الحرب العالميّة الأولى) وقد زهد في نظمه بعدها، وكان أدبيًا فذًا لا نظير له بين أدباء عصره، تأنّق بأقواله، وكأتمّها وليدة القرن الهجري الأوّل، وهذا ما يشير إليه (خوaja وآخرون)⁽²⁾، منبع الفصاحة والبلاغة، بدأ شاعرًا، وأديبًا، مُنشئًا، وناقداً، وراويًا، وانتهى فقمًا مجتهدًا قويّ الحجّة ناصع البيان، وكان حُبّه للعربيّة منقطع النّظير، وغيرته على وطنه فلسطين عديمة المثل. انتقل إلى جوار ربّه على أثر سكتة قلبيةّ حادّة بالقاهرة في صباح الخميس 22 كانون الثّاني يناير. دُفِنَ بالقاهرة، بمقبرة عبد القادر بك مختار⁽³⁾، وقد لحّدَه في قبره الحاجّ أمين الحسيني.

النّشاشيبي مدرّسا ومربيًا:

يُعتبر النّشاشيبي مربيًا ناجحًا في المدارس، ارتكز على زرع الحماسة وحُبّ اللّغة العربيّة في نفوس طّالابه، إذ يرى فيها وسيلة من شأنها إنجاح العمليّة التّعليميّة والتّربويّة. فإن أردت غرس الأخلاق والقيم العليا في نفوس التّلاميذ، فعليك اختيار النّصوص الجميلة من قرآن، وحديث، ومثّلٍ سائر، وخطبة بليغة، وشعر فصيح، يقوم بقراءة هذه النّصوص بتفهمٍ وتدوُّقٍ للأدب ممتعٍ، وبإلقاء قويّ سليم اللّفظ قويّم، والمخارج للحروف، يروق له السامع، تقرأ حتّى يستشعروا حبّك وحماستك

¹. يعدّ مجمع اللّغة العربيّة بدمشق أبًا للمجامع العربيّة الأخرى، فقد سبقها في الظهور إلى حيّز الوجود، وقدم لها من الأجيال المتعاقبة من أعضائه من يساهم في إنتاجها، وأدخل من أعلام تلك المجامع بين صفوفه من أغنى عملها وأثرى عطاءها. وقد كان المجمع، ولا يزال تجسيدًا حيًّا لوحدة النّاطقين باللّغة العربيّة، من جميع البلدان العربيّة وغير العربيّة، من مشارق الأرض ومغاربها.

². خوaja. إبراهيم، وائل أبو صالح، ص109.

³. الموسوعة العربيّة، المجلّد 20، ص671.

لهذه النصوص، ثمَّ يعود إلى كل نصٍّ من هذه النصوص، يعلِّق على مفرداتها تعليقيًا يكشف أسرار الألفاظ ودلالاتها المعجمية.

طريقته في التعلیم

اعتمد على اختيار النصِّ والتعليق عليه، ثمَّ الطَّلَب من التلاميذ حفظه، وعليه؛ كانت القراءة، السَّماع، وسيلتين من وسائله الأساسية في تعليم النِّشء وثقيفه، وهذه هي طريقة السلف الصَّالح في دروس العلم، إنَّها طريقة تقوم على دعامتین: الكتاب والأستاذ. على الرُّغم من شظف الحياة، وقلة الوسائل التعليمية في ذلك الوقت؛ إلا أننا نقف بين يدي علماء أفذاذ قد سطرَّ التاريخ أسماءهم بماء الذهب. كان النُّشاشيبي كثير الاشتراك في الندوات ومحافل العلم في فلسطين وخارجها، وخاصةً الوطنيَّة والقوميَّة والأدبيَّة منها، امتاز بالثوريَّة والتَّحريضيَّة، والتي تدعو الشَّعب إلى التَّحرُّك من أجل تحقيق هدفه المنشود.

يبرز نجم النُّشاشيبي في مناحي عديدة عدا الكتابات الأدبيَّة والشِّعر، كالوعظ والإرشاد في المساجد، يصبُّ اهتمامه مركِّزًا على نقطة بارزة، ألا وهي: ما يصيب الأمة العربيَّة من وهن وضعف وفرقة وتمزيق للصِّفِّ العربي الواحد، حيث يدعو إلى الوحدة العربيَّة، من خلال توحيد كلمتها، وإلى الكفاح المسلَّح لدفع العدوان عنها، وتحقيق الاستقلال، وإنقاذ فلسطين من الاستعمار ومخططاته في جعل فلسطين وطنًا قوميًّا للشَّعب اليهودي.

موقفه من اللّغة العربيّة والقرآن الكريم:

يشير (جبر) إلى مدى عشق إسعاف للّغة العربيّة وعلى حدّ قوله: "إنّّه يرى الله من خلالها، وإنّّه يرى كتاب الله وشريعته السّلميّة والرّاقية والمدهشة والسّاحرة"⁽¹⁾. كان إسعاف النّشاشيبي غيورًا على القرآن واللّغة، والحضارة الإسلاميّة، لا يروق له ما يروّج في الشّارع العربي من تسويق للحضارات الغربيّة، وبُعد العرب عن الدّين والعادات والتّقاليد العربيّة الأصيلة، لذلك عُرف بجِدّة مزاجه وتعضُّبه الشّديد من تلك الظّاهرة الآخذة بالاستشراف في الوطن العربي، أدرك الفساد الاجتماعيّ الذي ساد الشّرق، وما يروّج من دعوات فاسدة وهذّامة، يدعو لها الغرب وأتباعهم من المسلمين والعرب في أسواق الشّرق. تبدو غيرته واضحة جليّة في مصنّفاته، ولا سيّما في كلمته تحت عنوان "البطل الخالد صلاح الدّين والشّاعر الخالد أحمد شوقي".

عاش إسعاف النّشاشيبي في زمن شهد صراعًا عنيفًا بين دعاة التّجديد والمحافظين على دور القديم في اللّغة والحياة، ولمّا كان إسعاف من مؤيّدَي القديم وكان يعي تقدّم الغرب على الشّرق في مضمار العلم، فقد دعا إلى الانتفاع بالجديد مع حماية للقديم ليقوم الجديد على قاعدة صلبة، كما دعا إلى التّجديد في اللّغة والأدب، لكن التّجديد الذي يحفظ اللّغة من كلّ ما يؤدّي إلى فسادها واضمحلالها، التّجديد الذي يطوّر وينبّي ويزيد في صرح الحضارة من الجانب الأدبيّ واللّغويّ، لا التّجديد الذي يقضي على اللّغة العربيّة ويعتمد اللّهجات العاميّة أو الذي يلغي القافية بدعوة حرّيّة الشّعور وتجديده⁽²⁾.

¹. جبر. يحيى، ص 1-23.

². <http://www.marefa.org/index.php>

يُصِرُّ النَّشَاشِيبي على اعتبار اللُّغة هي الأُمَّة، والأُمَّة هي اللُّغة، وضعف الأولى ضعف الثَّانية، وهلاك الثَّانية هلاك الأولى⁽¹⁾، وما الأُمَّة إلَّا لغتها وأدبها وخلقها، حسب ما جاء في مقالته "العربيَّة المصريَّة". كان النَّشَاشِيبي عضوًا نشيطًا من أعضاء المجمع العلميِّ العربيِّ بدمشق⁽²⁾، انفرد بأسلوب من البيان، وبقدر متميِّز من الحماسة للُّغة العربيَّة. توفِّي في القاهرة عام 1948م، إذ يقول فيه صديقه أحمد حسن الرِّيَّات غداة وفاته: "إنَّ النَّشَاشِيبي كان خاتم طبقة من الأدباء واللُّغويين المحقِّقين، لا يستطيع الرِّمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله، فمن حقِّ المحافظين على التُّراث الكريم، والمعتزِّين بالماضي العظيم، أن يطيلوا البكاء على فقده وأن يرثوا لحال العروبة والعربيَّة من بعده"⁽³⁾.

من آثاره القلميَّة:

يشير (يعقوب) إلى أنَّ النَّشَاشِيبي عشق اللُّغة العربيَّة عشقًا لا حدود له، فكان له نصيب من المكتبة العربيَّة بمؤلَّفاته الشِّعرية والأدبيَّة واللُّغويَّة والنَّقديَّة والمقالات المنوَّعة. أُلِّف كُتُبًا تدريسيَّةً تحت عنوان "الدُّوق السَّليم في حُسن الاختيار".

¹. مفكِّرون فلسطينيُّون في القرن العشرين، ص22.

². مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق يعتبر أقدم مجمع للُّغة العربيَّة في الوطن العربي إذ تأسَّس في عهد حكومة الملك فيصل سنة 1919م، في سوريَّة للهُوض باللُّغة العربيَّة. وكان له دور كبير في تعريب مؤسَّسات وهيئات الدَّولة وتعريب التَّعليم وإنشاء المدارس الأولى في سوريَّة والدُّول العربيَّة. وهو مجمع أكاديمي يتألَّف من عشرين عضوًا من علماء ومتخصِّصي اللُّغة العربيَّة في سوريَّة، يشكِّلون عدَّة لجان كلجنة المخطوطات وإحياء التُّراث، ولجنة المصطلحات، ولجنة اللُّهجات العربيَّة المعاصرة.

³. الموسوعة العربيَّة، المجلد 20، ص671.

من مؤلّفاته:

- (أمثال أبي تمّام)، شرحها ونشرها تبعاً في مجلّة النّفائس، 1912م.
- (مجموعة النّشاشيبي)، القاهرة، 1923م، وهي تضمُّ:
 - أ- العربيّة وشاعرها الأكبر أحمد شوقي.
 - ب- اللّغة العربيّة والأسّاذ الرّيحاني.
 - ج- العربيّة في المدرسة (طبعت المجموعة في مصر، عام 1928م).
- (كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه)، القدس، 1916م.
- (قلبٌ عربيٌّ وعقلٌ أوروبيٌّ)، القدس، 1924م.
- (البستان، أقوال عربيّة من شعرونثر)، مصر، ط1، 1924م، و ط2، 1927م.
- (كلمة في اللّغة العربيّة)، القدس، ط1، 1925م. و ط2، الاتّحاد العام للكتّاب والصّحفيّين الفلسطينيّين، بيروت، (بدون تاريخ).
- (العربيّة وشاعرها الأكبر أحمد شوقي)، القاهرة، 1928م.
- (اللّغة العربيّة والأسّاذ الرّيحاني)، 1932م.
- (العربيّة في المدرسة)، 1932م.
- (البطل الخالد صلاح الدّين الأيوبي والشّاعر الخالد أحمد شوقي)، مطبعة بيت المقدس، ط1 القدس، 1932م. ط2، الاتّحاد العام للكتّاب والصّحفيّين الفلسطينيّين، بيروت، (د.ت.).
- (الإسلام الصّحيح)، القدس، 1936م.
- (مقام إبراهيم)، (عن الرّعيم السّوري إبراهيم هنانو)، 1938م.
- (ونُقّل الأديب)، بيروت، 1956م.

• (التَّفَاؤُل والأَثَرِيَّةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيِّ)، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، (بدون تاريخ).

• (المجموعة الكاملة لمؤلفات إسعاف النَّشاشيبي)، تحرير الدكتور كامل السَّوافيري.

المخطوطات:

• (الأُمَّة العَرَبِيَّةُ)، و(أَمال النَّشاشيبي)، و(حماسة النَّشاشيبي)، و(جَنَّةُ عَدْنِ)، و(المبہج).

المؤلَّفات والدراسات النَّقدِيَّة عنه:

• (أديب العَرَبِيَّةُ: مُحَمَّدُ إِسعاف النَّشاشيبي)، إسْحَقُ الحسِيني، دار الطِّفْلِ العَرَبِي، القدس، 1987م.

• (إسعاف النَّشاشيبي: عصره، حياته، أدبه وفكره)، ياسر أبو عليَّان وآخرون، دار الطِّفْلِ العَرَبِي، القدس، 1987م.

• (إسعاف النَّشاشيبي)، مُحَمَّدُ جمعة الوحش، منشورات وزارة الثَّقافة، عمَّان، 1988م.

• (إسعاف النَّشاشيبي)، أحمد عمر شاهين، دار المبتدأ، بيروت، 1992م.

• (أديب العَرَبِيَّةُ، إِسعاف النَّشاشيبي، بأفلام أديب العرب، بعد 50 عامًا على وفاته)، ناصر الدِّين النَّشاشيبي، دار الشُّروق، عمَّان. منح اسمه عام 1990م، من منظِّمة التَّحرير الفلِسطينيَّة وسام القدس للثقافة والفنون⁽¹⁾.

¹. أوس داود يعقوب، خاصَّ مؤسَّسة القدس للثقافة والتُّراث، <http://alqudsilana.com>.

مكتبة إسعاف النّشاشيبي: (1)

تشير مؤسّسة القدس للثقافة والتراث (بقلم: أوس داود يعقوب) إلى أنّ المصادر التاريخية تؤكّد بأنّ مدينة القدس عرفت مكتبات مسيحيّة قديمة جدّاً، مثل مكتبة الأسقف (إسكندر)، ومكتبة (أوريجين بامفليوس)، وأنّه ابتداءً من أواخر القرن السّادس هجري بدأت تتّضح ملامح جديدة لحركة الكتب والمكتبات في فلسطين بشكل عام، وفي مدينة القدس بشكل خاصّ، لأنّ العصر الأيوبي والعصر المملوكي، وبدايات العصر العثماني كانت عصور نهضة علميّة، وبالتالي وجدت نهضة مكتبيّة تمثّلت في مظاهر حضاريّة متعدّدة، منها إنشاء المكتبات الخاصّة والعامة، ولقد ضرب رجال الثقافة والعلوم في فلسطين بسهم وافر في إنشاء مكتباتهم، وبذل الكثير منهم كلّ غال ونفيس في إنشائها وتعميرها، (لكنّ القدر المحتوم - الذي لا مردّ له - يقدر لبعضها عدم البقاء لتصبح ضحيّة جديدة من ضحايا الاغتيالات الصّهيونيّة المتتالية على الميراث الفلسطيني، إذ لا تزال الحملات الصّهيونيّة منذ مطلع القرن المنصرم تصبّ غضبها على مكتبات فلسطين، وخزائن مخطوطاتها محاولة القضاء عليها بشقّي الصّور لعلمها بأهميّة هذه المكتبات في حياة الشّعوب ونهضتها).

يُعتبر محمّد إسعاف النّشاشيبي واحدًا من أولئك الأدباء، حيث امتلك مكتبة لا تشبهها مكتبة، حيث وصفها الأستاذ أنور الجندي قائلاً: "لقد كان قصر النّشاشيبي في القدس ملاذًا للأدباء، ومجمّعًا للأدب وبه مكتبةٌ من أنفس الكتب وأبرزها). أمّا عن مصير المكتبة! فهناك قولان:

¹ . <http://alqudslana.com/index.php?action=article&id=2562>

أما الأول⁽¹⁾: قول الأديب اللبّاني عجاج نويهض، يشير إلى ما يلي: "في شهر أيار/مايو 1948م، نُهب بيتُ إسعاف النّشاشيبي ومكتبته، وبيعت كتبه الثّمينة بالأرطال بيع غنائم باردة".

أما القول الثّاني⁽²⁾: يشير الأديب الأردني يعقوب العودات الشّهير بالبدوي الملتئم، فيقول: "لكنّ هذه المكتبة القيّمة أُطبق عليها من لا أخلاق لهم في نكبة عام 1948م، عندما اجتاح بعض المرتزقة أحياء القدس العربيّة زعمًا منهم أنّها أحياء يهوديّة، فنهبوا مكتبة محمّد إسعاف النّشاشيبي، وحملوها إلى مدينة الزّرقاء بالأردن وباعوها على مشهّدٍ ميّ بالرّطل لأصحاب الأفران فذهبت طعمه لليران".

ماذا قالوا عنه؟

نظم الشّعر ثمّ زهد في نظمه، أديب فدّ لا نظير له بين أدباء عصره، تأنّق بأقواله، وكأنتها وليدة القرن الهجري الأوّل، منبعّ للفصاحة والبلاغة، بدأ شاعرًا، وأديبًا، مُنشئًا، وناقداً، وراويًا، وانتهى فقيمًا مجتهدًا قويّ الحجّة ناصع البيان، وكان حبّه للعربيّة منقطع النّظير، شاعر، ناثر، منشئ، محقّق، وخطيب. شعره فخم جزل عربيّ الدّيباجة والجزس. فماذا قالوا عنه؟

يقول الأستاذ أنور الجندي⁽³⁾: "لقد كان قصر النّشاشيبي في القدس ملاذًا للأدباء،

¹. رجال من فلسطين، ص 17.

². من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص 627.

³. ولد "أنور الجندي" عام 1917 بقرية ديروط التابعة لمركز أسيوط بصعيد مصر، ويمتدّ نسبه لعائلة عريقة عُرفت بالعلم، فجده لوالدته كان قاضيًا شرعيًا يشتغل بتحقيق الثّراث، وكان والده مثقّفًا يهتمّ بالتّحفاة الإسلاميّة، وكان "أنور" - الذي تسمّى باسم "أنور باشا" القائد التّركي الّذي اشترك في حرب فلسطين والّذي كان ذائع الشّهرة حينئذ - قد حفظ القرآن الكريم كاملاً في كتّاب القرية في سنّ مبكّرة، ثمّ أحقه والده بوظيفة في بنك مصر بعد أن أنهى دراسة التّجارة بالمرحلة

وَمَجْمَعًا لِلأَدبِ وَبِهِ مَكْتَبَةٌ مِنْ أَنْفُسِ الكُتُبِ وَأَبْرَزَهَا). وقال أحمد حسن الزيات⁽¹⁾ غداة وفاته: "إنَّ النُّشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء واللُّغويين المحققين، لا يستطيع الزَّمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجودَ بمثله، فمن حقِّ المحافظين على التُّراث الكريم، والمعتزِّين بالماضي العظيم، أن يطيلوا البكاء على فقده وأن يرثوا لحال العروبة والعربيَّة من بعده. ويقول أمين الرِّحاني فيه: "ثلاثة سأذكرهم على الدَّوام: الحرم الشَّريف، وجبل الزَّيتون وإسعاف النُّشاشيبي. وهل أجمل من روح إسعاف السَّامية الحافلة بأنوار من الشَّرْق والغرب؟"⁽²⁾. يكتب عنه خليل السَّكاكيني في يومياته قائلاً: "... ثمَّ أعلنت الحرب الكبرى، وممَّا أذكره له بالشُّكر والإعجاب، أنَّه كان إذا عرف أنَّنا لا نجد خبراً يحمل شيئاً من الطَّحين على ظهره ويأتي به إلينا"⁽³⁾. ويشير الكاتب الرُّوسي ثيودوروف، بعد أن استمع إلى بعض قصائده بلسانه في لقاء بالقدس فيقول: "كان هذا الشَّاعر يقرأ قصيدته، وفي كلِّ نبرة من نبراته معان عظيمة، وقد ظهر لي وهو يقرأ نشيطاً عنيداً متحمِّساً. هذا الشَّاعر عربيٌّ قبل كلِّ شيء، ومسلم، ولكنَّه ممتزج مع إخوانه المسيحيين امتزاج الرِّاح والماء"⁽⁴⁾.

التَّعليميَّة المتوسِّطة، ثمَّ واصل دراسته أثناء عمله، حيث التحق بالجامعة في الفترة المسائيَّة ودرس الاقتصاد وإدارة الأعمال، إلى أن تخرَّج في الجامعة الأمريكيَّة بعد أن أجاد اللُّغة الإنجليزيَّة الَّتِي سعى لدراستها حتَّى يطلَّع على شُبهات الغربيين الَّتِي تطعن بالدين الإسلامي.

¹. ولد الزيات في قرية كُفر دميرة القديم التابعة لمركز طلخا بمحافظة الدَّقليَّة بمصر في 16 جمادى الآخرة 1303 هـ/ 2 إبريل 1885 م، ونشأ في أسرة متوسِّطة الحال، تعمل بالزِّراعة. تلقَّى تعليمه في كُتَّاب القرية، فحفظ القرآن وتعلَّم القراءة والكتابة، ثمَّ أرسل إلى أحد العلماء في القرية المجاورة ليتعلَّم القراءات السَّبْع وأجادها في سنة واحدة.

². من رسالة شخصيَّة وجَّهها أمين الرِّحاني للنُّشاشيبي.

³. يوميات السَّكاكيني ص 382 و 383.

⁴. مجلَّة "النَّفائس العصريَّة"، ص 189 - 190.

يشير (اليومي) إلى أن "أديب العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي بأنه علامة فلسطين، ووارث علم سيبويه والمبرد والأصمعي، فتحارز من سعة اطلاعه، وتنوع معارفه، وغوصه في المخطوطات، فضلاً عن المطبوعات، ويعتبر أكثر المثقفين غزارة مادة، وشمول ثقافة، وشدّة تنقيب، إذ كان الرجل -رحمه الله- موسوعة علمية تنطق بما ضمت من الذخائر"⁽¹⁾.

يرى الباحث الفلسطيني محمد سليمان أن النشاشيبي: "كان نسيج وحده، وكان ظاهرة رائعة من ظواهر هذا المتجه الخطر، متجه (الخاصة)، ولكنّه ظلّ محافظاً على الرونق. وكان تأنقه ملكة مستقرّة في قلبه. وكان هذا دليلاً على علو نفسه اللغويّ، وسلامة ذوقه الأدبيّ. وربّما لا يختلف معنا أناس كثير عندما نقول بأنّ إسعاف النشاشيبي يعتبر رأس مدرسة في النثر الفنيّ في فلسطين، ولكنّ هذه المدرسة كانت قليلة الأتباع وذلك "لقلة من كان يحذق الأصالة التعبيرية من أدباء فلسطين حينئذ على النحو الذي سار عليه النشاشيبي". وقال عنه المرحوم الدكتور إسحق موسى الحسيني (عميد الأدب الفلسطيني): "كان النشاشيبي أديباً فذاً لا نظير له بين أدباء عصره، وفي رأبي أنّه جاهد لبيدع في النثر إبداع صاحبه أبي تمام في الشعر، فغاص في كثير من أقواله غوصه، وتأنق تأنقه، وحلّى تحليلته، ورمى بتلك القرون الطوال وراء ظهره، ليظهره في ثوب القرن الثاني الهجري"⁽²⁾.

¹. من أعلام العصر، كيف عرفت هؤلاء؟، ص 37-43.

². أوس داود يعقوب، خاص، مؤسسة القدس للثقافة والتراث، <http://alqudslana.com>.

النّشاشيبي والسّكاكيني والنّثر الفلسطيني في الثّالث الأوّل من القرن العشرين:⁽¹⁾

"... ولعلّنا نستطيع أن نقسّم تيّاري النّثر الفلسطيني في الثّالث الأوّل من القرن العشرين إلى تيّار المتنبّي، وتيّار بديع الزّمان الهمداني، وقد أعجب السّكاكيني بالمتنبّي، وأعجب إسعاف بديع الزّمان الهمداني، حيث يخبرنا السّكاكيني في (كذا أنا يا دنيا) أنّه، في بداية القرن العشرين وبعد دستور 1908 العثماني، فيقول: "كنا نحن الثّلاثة على اتّصال مستمرّ، وكان إسعاف مولعاً بديع الزّمان ينسج على منواله، وكنت أنا مولعاً بأبي الطّيّب، وكان حنّ العيسى مولعاً بالأصمعي، فتوزّعنا كئى هؤلاء الثّلاثة.

أمّا إسعاف فكئنا أبا الفضل، وأمّا أنا فكان نصيبي كنية المتنبّي وهي أبو الطّيّب، أمّا حنّ العيسى فكئناه أبا سعيد، وهي كنية الأصمعي)، وإذ فشل حنّ العيسى في أن يمثّل تيّاراً، فقد استقطب السّكاكيني المتنبّي، والنّشاشيبي بديع الزّمان، وأمّا الحياة الأدبيّة في وقها: الأوّل ممثلاً بالحدّاة الّتي تأخذ من تدفّق المتنبّي وصفائه مثلاً لها، والثّاني مثلاً للإحيائيّة، الّتي تحاول أن تعيد إحياء اللّغة العربيّة القديمة، من دون أن تشتقّها من الحياة، وأن تجعلها على تماسّ مع لغة النّاس.

كان الصّراع بين الاتّجاهين في البدء يتمّ بأقنعة المتنبّي وبديع الزّمان، لكنّ السّكاكيني تخلّى عن الأقنعة فيما بعد، وصار ممثلاً إلى لغة أشدّ ارتباطاً بالحياة، وقد حافظ على ذلك، ولم يرتكس عن حدّاته، في حين أنّ النّشاشيبي صار مع الزّمن أكثر قرّباً من أصوليّة ما، جعلته يتعدّد حتّى عن شيء من جديد شبابه"⁽²⁾.

¹ يوميات خليل السّكاكيني، الأحلام الممزّقة، ص 114.

² "كذا أنا يا دنيا"، يوميات خليل السّكاكيني.

وهنا أودُّ الإشارة إلى علاقته الوطيدة بالسَّكاكيني، حيث يشير إلى العلاقة الأستاذ محمَّد سليمان قائلًا: "بقدر ما يبدو الاتِّجاهان متصلحان ومتعايشان بسلام في إطار حاضنة واحدة، فقد كان رمزا هذين الاتِّجاهين صديقين وفِيَّين- النَّشاشيبي والسَّكاكيني- طوال حياتهما، ولم تحدث بينهما خصومة أدبيَّة، وذلك لأنَّ كلَّ واحد منهما كان أصيلاً في اتِّجاهه ويكَمِّل الآخر من ناحية فنيَّة... وكما كان لكلِّ من الأديبين النَّشاشيبي والسَّكاكيني أسلوبه الخاصُّ في الكتابة دون أن يُحدِث الاختلاف في الأسلوبين خلافاً وخصومة بينهما، فإنَّه في مجال النَّقد الأدبيِّ كان لكلِّ منهما أسلوبه المختلف عن الآخر، والمستمدُّ من نفس المسوِّغات الَّتِي أسَّس عليها كلُّ منهما أسلوبه في الكتابة"⁽¹⁾⁽²⁾.

نتيجة الدِّراسة:

إنَّ ما تشيرُ إليه الدِّراسة، ويتوافق مع معظم المصادر والموادِّ المتوفِّرة، الإشارة إلى ثقله ومكانته الَّتِي خطَّها في سطور اللُّغة العربيَّة، حيث يعتبر رائداً من رواد الأدب الفلسطيني، يشهد له عمله بذلك، تفنَّن في إبداع نمط أدبيِّ، أُطلقَ عليه "اللُّون الأدبيُّ النَّشاشيبي"، وذلك من خلال دقَّته في انتقاء العبارة الصَّائبة الَّتِي تشغل المعنى المقصود، تنبأً بمستقبل القضية الفلسطينية وأحوال فلسطين، من خلال قصيدة "يا فتاة الحيِّ" الَّتِي نحن بصدد الوقوف عندها ونقدها لاحقاً.

قصيرُ قامة؛ عملاقُ لغة، وهذا يذكِّرني ببعض العظماء كعبد الله بن أبي قحافة – أبي بكر الصِّديقيِّ-والحجَّاج بن يوسف الثَّقفي، وغيرهما ممَّن خلد التاريخ أعمالهم وحفرت أسماؤهم في ذاكرة التاريخ، يشهد له بالمعرفة والعلم والمقدرة، واستوقفني

¹ تاريخ الصَّحافة الفلسطينيَّة.

² مقهى الصَّعاليك في القدس، موقع مجلَّة الحرِّيَّة.

قول (الببؤمي) ينعته بوصف دقيق حيث يقول: "موسوعة علميّة تُنطقُ بما ضمّت من الدّخائر". قلبه ينبض العربيّة، وفكره مشغول بالقضايا الوطنيّة، وهذا يظهر جليّاً من خلال قصيدته، "يا فتاة الحيّ، فهذا العنوان يفتح أمامي أكثر من اتّجاه للتّفكير بما يشغل فكره حينها، إنّه يخاطب الفتاة الفلسطينيّة، الّتي تبكي فقيدها، أو ربّما يناديها أن تجود بالدّماء (التّبزّع لبنك الدّم) بدل أن تجلس باكية، وهذه إشارة - إن صحّ القول- إلى فداء فلسطين ألا وهو الدّم، والدّم يرمز للحياة بشكل عام. والبكاء يشير إلى الفرح والحزن معاً، فهو -النّشاشيبي- يريد أن يقلب الحزن إلى فرح عند الفتاة الفلسطينيّة بأن تجود بدمائها بدلاً من بكائها، حتّى يضمن الاستمراريّة للقضيّة الفلسطينيّة.

وبمجرّد مخاطبته للفتاة الفلسطينيّة؛ فهي إشارة واضحة إلى الدّور الرّئيسي للفتاة، بل وضعها في دائرة المسؤوليّة للدّفاع عن الوطن، تماماً كما يشارك ويحمل الرّجل قضيّته الفلسطينيّة، وبصرح العبارة يعوّل على أهميّة المشاركة النّسائيّة في القضيّة الفلسطينيّة، وإن استمرّت بالبكاء تندب حظّها، فحتماً ستبكي دماً فيما بعد، حيث يقول:

"يا فتاة الحيّ جودي بالدّماء بدّل الدّمع إذا رُمّت البكاء"
وهذا في البيت الأوّل، والنّتيجة:

"سوف تشكين وتبكين دماً يوم لا يُجدي ولا يغني البكاء"،
وهذه علاقة سبب ونتيجة، وهنا تكمن عظمتها من خلال الصّورة الشّعريّة الّتي يصوّرها في القصيدة، في استمرار النّضال من أجل القضيّة الفلسطينيّة، فاستمرار البكاء لا يجدي نفعاً، ويتربّب على ذلك استغلال الدّور النّسائي في القضيّة الفلسطينيّة.

أيضاً يشير النّشاشيبي في قصيدته "يا فتاة الحيّ" إلى قضية هامّة جدّاً من أجل حفظ وحماية القضية الفلسطينية. ألا وهي: ترك الخصومات والكراهية جانباً بين جميع الأطياف الفلسطينية، ويؤكد على وحدة الصّفّ الفلسطيني، فإنّ فلسطين قضية الجميع. يحثّ الشعب الفلسطيني على التّكاتف من أجل الوطن، ويصف الاستعمار بالدّاء، وهذا الدّاء قد أعى أهل فلسطين، وينادي أن يجدوا الدّواء المناسب لهذا الدّاء! وهنا يشير إلى السّياسة الاستعماريّة في السّيطرة على فلسطين، وهي عن طريق المال، من خلال شراء الأراضي، ونشر الفتنة داخل المجتمع الفلسطيني، وهذا ما أشار إليه سابقاً، بدعوتهم إلى وحدة الصّفّ الفلسطيني، فإنّ بالاتّحاد قوّة يمكنها أن تقف في وجه هذا الدّاء.

لقد مرّ على كلامه أكثر من مائة سنة، والنّتيجة وكأنّه متوقّعا بما يتعلّق بفلسطين مطلقاً، ولا يمكن أن تحلّ القضية الفلسطينية إلّا بعزّة النّفس، والإباء، وغير ذلك هلاك وفناء، ولا تعجب أخي القارئ بأنّ أكثر المحروقين على قضايا أوطانهم، قضوا نحيم على إثر سكتة قلبيّة حادّة، رحم الله هذا الرّجل رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء لما قدّم من أعمال، أدبيّة ووطنية... وإليكم نصّ القصيدة... وأترك الباب مفتوحاً أمام كلّ غيور على اللّغة العربيّة، وعلى قضايا وطنه، التّأمّل في معاني هذه القصيدة الّتي اخترت نقدها من بين أعماله الرّائعة، ولم أوفيها حقّها..

يا فتاة الحيّ

يا فتاة الحيّ جودي بالدماء
فلقد ولّيت فلسطين ولم
نكبت أقدامها سُبلُ الهوى
سوف تشكين وتبكين دماً
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء
إنّ الاستعمار قد جاز المدى
إنّ هذا الداء قد أمسى عياءً
إنّها أوطانكم فاستيقظوا
فاعلموا يا قوم إن لم تعلموا
أذكروا إنّ غرّكم مالهم
بدل الدّم إذا رُميت البكاء
يبق يا أخت العلاء غير ذمّاء
فشَرّتها للعدا شرّاً⁽¹⁾
يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
وانبذوا البغضاء نبذاً والعداء
دون أن يعدوه عن سيرِ عداء
فتلافوه سريعاً بالدّواء
لا تبعوها لقوم دخلاء
أنّ عقباكم هلاكٌ وفناء
عزّة الأنفسي دوماً والإبء

¹ - في الأصل (سبل الهدى) ولعلّه خطأ من النّاشر، لأنّ الهدى سبيل وليس سبلاً، ولا يفضي إلى هذه النتيجة.

قائمة المصادر:

1. أبو عليان. ياسر وآخرون. إسعاف النشاشيبي: عصره، حياته، أدبه وفكره. القدس: دار الطّفل العربي، 1987.
2. البيّومي. محمّد رجب. من أعلام العصر. كيف عرفت هؤلاء؟. القاهرة: الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 1996.
3. جبر. يحيى. محمّد إسعاف النشاشيبي، 1885-1948، الموسوعة الفلسطينيّة. نابلس: مكتبة الجمعيّة العلميّة، 1994.
4. الحسيني. إسحاق موسى. هل الأدياء بشر؟. بيروت: دار العلم للملايين، 1960م.
5. الحسيني. إسحاق موسى. أديب العربيّة، محمّد إسعاف النشاشيبي. القدس: دار الطّفل العربي، 1987.
6. الحسيني، خليل محمّد. إسعاف النشاشيبي أديبًا وكاتبًا. القدس: مطبعة المعارف، 1987.
7. خواجا. إبراهيم، وائل أبو صالح. فنّ الخطابة عند إسعاف. القدس: مطبعة المعارف، 1987.
8. الزّركلي. خير الدّين. الأعلام. 8 مجلّدات، (مج. 6)، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.
9. السّكاكيني. خليل. يوميات خليل السّكاكيني الخروج من القطومون. تحرير: أكرم مسلمّ. ط1. دم: مركز خليل السّكاكيني الثّقافي ومؤسّسة الدّراسات المقدسيّة، 2010.
10. سليمان. محمّد. تاريخ الصّحافة الفلسطينيّة. ج. 1. (1876-1918م)، ج. 2. ط1. (الصّحافة الفلسطينيّة والانتداب البريطاني)، الاتّحاد العام للكُتّاب

- والصحفيين الفلسطينيين والإعلام الموحد- م. ت. ف، نيقوسيا، قبرص: مؤسسة بيسان للصحافة والنشر والتوزيع، 1987م.
11. السكاكيني. هالة. "كذا أنا يا دنيا؛ يوميات خليل السكاكيني". دم: المطبعة التجاريّة، 1955م.
12. الشّريف. خير الله. الموسوعة العربيّة. النّشاشيبي (محمد إسماعيل). مج. 20، دم: دن، دت، ص 671.
13. كحّالة. عمر رضا. معجم المؤلّفين. ط 1، ج 4، بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1414هـ- 1993، ص 671
14. النّاشف. تيسير. مفكّرون فلسطينيون في القرن العشرين. ط 3. يافة الناصرة: دن، دت.
15. النّشاشيبي. ناصر الدين. أديب العربيّة، إسماعيل النّشاشيبي، بأقلام أدباء العرب، بعد 50 عامًا على وفاته. عمّان: دار الشّروق، 1993.
16. النّشاشيبي. إسماعيل. ديوان العرب: مجلّة فكريّة ثقافيّة اجتماعيّة، تشرين الثّاني، 2009، التّاريخ: (17 نيسان، 2005)
- <http://www.diwanalArab.com/spip.php?article2108>.
17. النّشاشيبي. محمد إسماعيل. قلب عربي وعقل أوروبي. القدس: مطبعة بيت المقدس، 1342هـ.
18. الوحش. محمد جمعة. إسماعيل النّشاشيبي. عمّان: منشورات وزارة الثّقافة، 1988.
19. شاهين. أحمد عمر. إسماعيل النّشاشيبي. بيروت: دار المبتدأ، 1992.
20. نويهض. عجاج. رجال من فلسطين. بيروت: دار العلم للملايين، 1960، ص 17.

21. العودات. يعقوب. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، رجال من فلسطين. بيروت: دار العلم للملايين، 1960.
22. الموقع الإلكتروني: معجم البابطين للشُعراء العرب المعاصرين.
23. مجلة، "النَّفائس العصريَّة" ج. 4، 1911م، السَّنَة الثَّالِثَة، ص 189-190.
24. منّاع. عادل. لواء القدس في أواسط العهد العثماني، الإدارة والمجتمع: منذ أواسط القرن الثَّامن عشر حتَّى حملة محمَّد علي باشا سنة 1831م. ط1. بيروت: مؤسَّسة الدِّراسات الفلسطينيَّة، 2008م.
25. منافخي. بشَّار. "مقهى الصَّعاليك في القدس"، موقع مجلَّة الحرِّيَّة، <http://alhourriah.org>، 2009/02/21م.
26. <http://www.marefa.org/index.php>
27. <http://www.alquds-online.org/index.php?s=15&ss=14&id=11>
28. <http://www.albayan.ae/paths/books/1277242808300-2010-07-10-1.263720>
29. <http://www.marefa.org/index.php>
30. <http://ar.wikipedia.org/wiki>